

أفروdit

اختفت فرقة الموسيقى وراء ستور ذهبية الخليل التي انقلبت معبدًا فرعونياً قديماً ، وجعل كل من الحاضرين يصلح من ملابسه للمنظر الثاني من مناظر هذه الليلة الساحرة . وسادت برهة صمت لم تطل أن حل فعل الشراب عقدة الألسن ، وبعث إلى النفوس من معاني الابتهاج ما أعجزها عن السكينة . . وأضاف ضياء القمر الذى ازداد نحولا ورقة إلى بهجة النفوس هياماً بالجو السائغ ، وهياماً أكثر منه بذلك الراهبات الباسمات بسمات نعيم ورضا . ولبنا على ذلك برهة لم تطل ، ثم إذا بنا نحس بادئ الأمر ثم نستيقن بعد ذلك أن أصواتاً موسيقية بعيدة تحيى إلينا مبطنة مبطنة ، كأنما هى تهبط من سابعة السموات . ووقفت راعية هاتورة مبطنة مبطنة هى أيضاً تستقبل هذا الصوت السماوى الهابط إليها مع شعاعة من ضوء القمر . فلما كادت قامتها تنتصب تقدمت برجلها اليمنى ورفعت يديها إلى ناحية الصوت ، كأنما تستجدى من الآلهة مزيداً فى سعادة الليلة . وفى ضراعة استجداء الآلهة رقصت الراقية رقصاً قدسياً ، فلم تترك وسيلة لاسترضاء أهل السماء أو للتأثير فيهم بها ، إلا لجأت إليها . وما أحسب أن هذا القوام اللدن المثنى استعطافاً الواهب نفسه للأرباب هبة حلال ، إلا نال رضاهم وما يطمع فيه من نعيم . فلم يكد هذا الرقص ينتهى حتى كانت دقات الموسيقى ترتفع فى أنغام طرب وسرور وبهجة لم يستطع الجمع معها إلا أن يقوموا مبتهجين يشكرون للآلهة أنعمهم . وما دامت الآلهة قد بعثت من سماواتها رقص الطرب فإنما يكون شكرها بالإذعان لمشيئتها وبالإمعان فى الطرب . على أن القوم لم ينتظروا طويلاً ليعرفوا هذه المشيئة ؛

فقد ارتفع من خلف الستور صوت العواد منشداً :
 « شكراً للأرباب ، أرباب السماء . قد منحونا غبطة وهناء ، فانعموا
 بالعيش فى لج القمر ، عاشق القبة الزرقاء وهَّاب الثمر ، ثمر العشق لمن جن
 غراماً . شكراً للأرباب . . » .

وعلى أنغام هذه الأنشودة انتقلت الراعية من رقص الاستجداء إلى رقص
 الشكر ، ومن التثني فى ضراعة إلى القفز فى مرح ، كأنما تريد أن تطير إلى
 آلهة أجدادها الفراعنة تقبلهم تقبيلاً ، أما الجمع فاندفع يغنى : شكراً للأرباب
 أرباب السماء . وفى نشيده اختلطت أصوات الرجال القوية بالأنغام النسوية
 المشجية ، وإن تميزت هذه الأنغام كما يتميز الماس المركب على الذهب
 الأبيض . وأمسى القوم فى أنشودتهم وفى رقصهم زمناً ، حتى انقلبت الموسيقى
 مرة ثالثة إلى أنغام ردت النفوس إلى الشعور الدينى ، وعادت بالمشدين إلى
 احترام معنى لباس الرهبان . ودعا القوم شبهها بموسيقى المنظر الأول إلى أن
 يقفوا صفين رهباناً وراهبات لتخطر بينهما راعية هاتور راقصة رقصاً دينياً هو
 رقص التوبة والاستغفار خرت فى ختامه ساجدة وقد علا بالنحيب صوتها .
 وما كان أشد دهشتنا حين ألقيناها ، بعد ما فرغت الموسيقى من عزفها وبعد أن
 اتجه كل إلى مقعده يريد أن يعود إليه ، ما تزال دمعها تنهل على وجناتها
 الخمرية اللون فلما سكن روعها قال الذى دعانا إلى الشاى :

- كذلك الحياة : ضراعة إلى النعيم فهل منه فزهد فيه وتوبة عنه .
 صباً يتوثب ، وشباب يستمتع ، وشيخوخة تخشى وتستغفر . رجاء ما نكاد
 نحسبه تحقق حتى نراه حلماً يتطاير . هذا معنى نراه كل يوم بأعيننا ، لكنه
 لا يترك من الأثر فى نفوسنا ما كان لدموع الراعية التى أذابت قلوبنا وفتحت
 على هذا المعنى نظراتنا التى لا ترى كثيراً مما تقع عليه .
 وعادت كل جماعة إلى مكانها ، وعاد الأسيب مع السيدات

والسادة فجلس إلى جانب فاتنة سميراميس كما كان . أما الشاب فقد ظل على مقربة من راعية هاتور يسألها عما بها وإن كره الخليل هذا التحكك الذى أثار من غيرته . على أنه فى رعايته حقوق الضيافة لم ينس أن ينادى السقا ليدوروا على الجمع بالشراب ، وسرعان ما امتلأت الأكواب أترعها السقا تتبعهم غادة المومياء . فلما عاد القوم إلى شرابهم استصحب الخليل الراقية إلى مجلسنا مع السيدات والسادة آملاً أن ينصرف الشاب إلى حديث غير حديث الهوى . ولم يخطئ الظن ، فما كاد يستقر به المقام حتى اتجه إلى ناحية الذى دعانا إلى الشاى قائلا :

— حق ما ذكره صديقنا نجى العجل المقدس . إن الناس اليوم هم الناس منذ بضعة آلاف السنين التى يعرفها التاريخ من تفكيرهم . لكنى بإزاء ما رأيت منذ لحظة أسائل نفسى ، أصبح أن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون موضع عناية الباحث وغاية حياة الحكيم ؟ وهل صحيح أن فى الوجود حقيقة مجردة غير هذه الحياة التى نحيا بما فيها من شهوات وأوهام وآمال وبما تنتهى إليه من تفران وتجدد ، يهبط بجيل إلى غيابات الفناء ، ليطفو بجيل آخر إلى عالم الشهوات والأوهام والآمال ؟ وخير ما فى هذه الأوهام من حقيقة هو ما نحن الآن فيه من نعيم كنا ننهل منه وما يزال لنا أكبر الرجاء فيه بأن تعود الراقية الساحرة إلى الرضا عن الحياة لترضى الحياة عنا جميعاً .

فأسرع الخليل خشية أن يعود الشاب إلى ما يثير غيرته فقال :

— لقد ذكرت أن هاتور فى مصر هى سميراميس فى آشور وهى أفروديت عند الإغريق . وقد أسمعنا نجى أبيس من أمر هاتور حديثاً شهياً ، فهل لنا أن نسمع عن أفروديت مثل هذا الحديث ؟

وكأنما أراد الخليل بذكر أفروديت وبرواية قصصها أن ينسى الشاب وغير الشاب راعية هاتور لتبقى خالصة له من دون الرجال الحاضرين جميعاً ،

فلا يضطر أن ينبه أضيافه إلى فضل الرعاية وجهه لها في إعداد هذه الليلة لتأمتهم ، وأن ينبه الشاب إلى ألا يخرج به الشراب عن صوابه .

وكان الأشيب قد نال من رعاية فاتنة سمي راميس التي صدفت عن صاحبها الأول لنسيانه إياها في شرابه ما جعله يملق جمالها بنظراته دون أن يستطيع قولاً إلا همساً لا يرى من اللياقة أن يسمعه أحد غيرها ، لكنه إذ سمع دعوة الخليل إلى قصص حديث أفرو ديت ، وإذ كانت أفرو ديت إلهة الجمال والحب والرغبة والخصب وكل معاني الحياة محققة على الحياة ، فقد رأى في توليه قصص حديثها الوسيلة إلى مخاطبة صاحبه في شخص إلهة الرغبة . لذلك سارع إلى هذا القصص في لهجة مطمئنة تنطوي طمأنينتها على شيء من الإيمان بأفرو ديت يشبه إيمانه بسميراميس وفاتنتها . قال :

- ليست إلهة الجمال والرغبة أفرو ديت إغريقية الحسب ، بل هي فينيقية من قبرص . ولعلها تتصل صلة لم يحدثنا عنها التاريخ بزيارة إيزيس جبيل باحثة عن أوزوريس . على أن أزيود يذهب إلى أنها نشأت نشأة أخرى . ففي معركة بين الإلهين القديمين أورانوس وكرونوس قط الأخير رجولة الأول ، فسقطت هذه البقايا المقدسة على لج الموج ، فحمل منها رغاؤه الذي ظل يجتمع حولها حتى كملت منه ساعة بلوغها قبرص الإلهة الساحرة ذات التاج الذهبي . ويذهب هوميروس إلى أن الإلهات أعجبن بأفرو ديت ساعة رأيها ، فأنشدن في حضرتها أغنيات المرح ، وزين آذانها بأقراط الذهب ، وخلعن عليها ما كن يلبسن في أعناقهن وعلى صدورهن من أطواق ولبات . فلما تمت زيتنها خرجن بها إلى الآلهة حافات من حولها . فما كاد الآلهة يرونها حتى هام كل بسحرها وتحركت فيه لواذع الرغبة وتقدم يريد منها زوجها له وزينة لمضجعه الإلهي وكمالاً لربوبيته . وكيف كان لأى منهم سبيل إلى النجاة من سحرها وقد كان الحب والرغبة بعض تبعها ، وكان يتضوع مع عذب شذاها

سحر الحديث وسحر الابتسام وسحر الكذب وسحر المرأة جميعاً .

« على أن إلهة الجمال والرغبة كانت من الذكاء بما طوع لها أن تنال من رغبة كل إله . وكانت من الكرم والفطنة بما دعاها إلى أن تصل بين الآلهة والناس بأوثق صلة . وعلى الرغم مما كانت تعرفه وتشعر به من كبرياء الآلهة وحرصهم على ألا تختلط أنسابهم بأنساب عبادهم ، فقد سخرت من هذا الحرص وتلك الكبرياء ، وجعلت تخدع الآلهة في الناس والناس في الآلهة ، فتدس في مضجع الإله جميلة من بنات حواء ، وفي مضجع الإله . . جباراً من بني آدم . وكأنما دفعها الرغبة آخر الأمر إلى تذوق ما أتاحت لغيرها ذوقه ، أو كأنما حنق عليها أبو الآلهة زوس ، فأراد أن يخضعها لما أخضعت هي له غيرها من الآلهة ، لذلك ما لبثت أن رأت أنشيز يرعى أبقاره على سفوح الأيدا حتى امتلأ جسمها بجماله الساحر سحر جمال الآلهة غراماً ورغبة . فأسرعت إلى معبدها وأحاطت بها الشاريت حتى استحمت ثم عطرناها بالعطور الإلهية ، وازينت ولبست ثيابها النمامة ، وخرجت قاصدة سفح الأيدا ، حتى إذا رآها أنشيز جنّ بها ما يحن كل من رآها من الناس والآلهة طراً . على أن الخوف ملكه أن تكون إلهة فيصبيه من الاقتراب منها أذى . لكنها خدعته بقولها إنها ابنة ملك فريجيا ، وإنها جاءت إليه بأمر أبيها لتصبح له زوجاً . ولم يطق أنشيز أمام جمالها صبراً . وكان له مخدع وثير كساه من جلود السباع والضباع التي صادها ، فذهب بها إليه وهي كاسرة الطرف تزعم الحياء . ولما أفاق من غشيته وبصر بها وقد ارتدت ملابسها لم تبق لديه ريبة في ألوهيتها ، فتضرع إليها ألا يصيبه ما يصيب من تخالط الإلهات الخالدات من ذهوب الشباب . فطمأنته وإن لم تخف عليه أنه مصيبه الهرم الذي لا يرحم حين يهدم الناس هدماً ، ثم إنه سيعتاض من هرمه ومن مشيه أبناء من الآلهة تخلد فيهم قوته . أما هي ، أما أفروديت ، فسيصيبها من فعلتها معه سخرية

الآلهة إن هم علموا بشيء من أمرها . لذلك حذرت أنشيز أن يقول شيئاً أو يفخر بما صنع ، وإلا أصابته الصاعقة بإذاعته سراً يجب كتمانها .

« وإنما كانت صلة أفروديت بأنشيز عماية ساعة . لكنها أولعت حباً بأدونيس ، حتى لقد ذهب يوماً للصيد فاقتحمه حيوان مفترس وجرحه جرحاً مميتاً ، وكان هذا المنظر بمرأى من أفروديت ، فطارت إليه ناسية أن تحتذى ، فوطئت قدمها شجرة ورد جرحتها شوكتها فأسالت منها نقطة من الدم . وكان الورد إلى يومئذ أبيض اللون فاحمرَّ لونه من دم أفروديت ، وأقامت تبكى محبها زمناً أدهش الذين عرفوها صديقة الهوى والعابثة بكل معاني الوفاء .

« ولأفروديت غير هذا من قصص العبت والآلهة والناس استيفاء لرغباتها ما يطول حديثه . على أن حكومتها هي وحيرا وهيلانة إلى الشاب الباربع باريس لا يجهلها عالم بتاريخها . فقد تنافس النسوة الإلهات الثلاث في الجمال فاحتكمن إلى باريس . وكيف كان له أن يتردد في حكومته بعد الذى تضوع به جمال أفروديت الباهر الفاتن . ولما حكم لها أرادت العبت بمنافستها هيلانة زوج أجا ممنون ، فبعثت إلى نفسها عشق باريس حتى تבעته تاركة مضجع زوجها مرتضية الشاب الذى حكم عليها خليلها لها . وكانت هذه الفعلة سبب حرب طروادة . وفى هذه الحرب برز كل من هذين الخصمين لصاحبه ، ففجر الزوج باريس من خوذته . لكن أفروديت أسرع إلى معونة من قضى لها بحكومة الجمال فأنقذته وفرت به . وأرادت هيلانة أن تكفر عن خطيئتها بعد الذى رأت من ضعف خليلها . لكن إلهة الرعد هددتها إن هى فعلت أفسدت عليها وعلى زوجها الحياة ، وأرغمتها بذلك على أن تظل فى أحضان باريس برغم احتقارها إياه لضعفه وحقنقها على نفسها .

وكذلك يملك الجمال أفئدة الآلهة والناس جميعاً إنثاءً وذكراً . وكذلك

حكمت أفروديت آلهة الأولب كما حكمت الناس بذكاء جمالها الساحر .
 وحق لكل من منحت ما منحت أفروديت أن تجلس على عرش الجمال حاكمة
 على القلوب والأرواح والأفئدة ، مسخرة لرغباتها الآلهة والرجال تسخيراً
 يستريحون له ويرضون عنه ، بل يرغبون فيه أعظم الرغبة » .

في هذا الموضع من حديث الأشيب التفت الشاب إليه وعلى شفته بسمه
 الساحر فقال :

- تحدث أخى تحدث . هات لنا من مثل ما ذكرت عن الآلهة
 والجميلات . حدثنا عن أفروديت إلهة البغى والفجور ، وقل لنا بعد ذلك إنها
 إلهة تستحق العبادة ، وأن تقام لها الصلوات ، وأن يحرق لها البخور . ولك أن
 تذكر أكثر من هذا أن الإغريق القدماء الذين امتازوا بالفطنة والذكاء
 والذين ألف مؤلفوهم خير ما كتب في الأخلاق ، قد شادوا لبغيا ولفجورها
 من المعابد ما لا أدرى أى دافع يدفعك إلى التحدث عنه بكل هذا الإطراء
 والإعجاب .

أتم الشاب حديثه ، فأدار الأشيب إليه وجهه لحظة ارتسمت أثناءها على
 شفثيه ابتسامة ازدراء وإشفاق ، ثم شاح بوجهه وتوجه به إلى ناحية صاحبه
 الفاتنة وقال :

- يخطئ الذين يحسبون أفروديت إلهة البغى والفجور . إنما هى إلهة
 الخصب ، تريد أن تهدي للعالم أجمل ثمرات الحب وأبهاها . ولذلك كان
 الإغريق يباركون باسمها الزوجين أول زواجهما ليكون لهما من الأبناء فى مثل
 جمال أفروديت وذكائها . وكيف تريد بإلهة الجمال والرغبة ألا تهب من أه
 الفضائل لكل مختارها ؟ أو لو ضن إله الحكمة بحكمته على الناس أبقى
 مع ذلك جديراً بالربوبية ؟ ! ولو ضن إله الحصاد أو إله الخصب بالخصب
 وبالحصاد وترك الأرض جرداء قاحلة ليموت الناس جوعاً ، أو ليطعموا

الزقوم ، أياكون أيهما قميئاً بقليل أو بكثير من حب الناس واحترامهم ، والناس مطالبون بهما لكل إله ؟ ! فماذا يستطيع إذن أن ينقم ناقم من أفروديت أو من سميراميس أو من كل إلهة من آلهة الجمال والخصب إذا هي اتصفت بالكرم أول صفات الآلهة ، وخلعت من جمالها ومن رغبتها على العالم ، لتزيد العالم جمالا ، ولتزيد الناس في العالم رغبة ؟ ! ولسميراميس ولأفروديت في العالم رسل من بنات حواء هن مثل جمال أولئك الآلهة ، ويملكن من وحي الرغبة ما كانت الآلهة تملك . أولئك الرسل يباركن العالم ويبعثن إلى جوه شعراً ونعمة .

وفي هذا الموضع من حديثه زاد توجه الأشيب للفاتنة ولعت حدقاته بندى بللها وجعل منهما مرآة تسترد الفاتنة إليها لتردها إلى حنايا قواده . وشعرت هي منه بهذا ، فتندت نظراتها هي أيضاً ، ونسيت صاحبها العاكف على شرايه فما يسمع مما يدور حوله من الحديث شيئاً ، ولا يتعفف عن أن يجيل عينيه في الراهبات حوله لا يفضل منهن واحدة على أخرى . وبدت من الفاتنة حركة دلت على حرصها على أن تبدى جمال ذراعها ، كأنما تريد أن تبين عنهما للأشيب المسحور بجمالها لتقول له : هما لك يطوقان كل جيدك فلا يعرف بعد تطويقهما شيئاً . وتابع الأشيب حديثه وقد تندى صوته كما تندت حدقاته فقال :

— تبارك أولئك الرسل العالم ، ويبعثن إلى جوه شعراً ونعمة . وإذا هن لم يعنين بأن يكن أوعية خصب ، فحسبن فضلاً أن يوحين لغيرهن من تلك الأوعية حرصاً على أن يثمرن ثمراً جميلاً . ألستم ترون إلى كل امرأة لم تؤت من الجمال الحظ الذى ترضى عنه تجاهد لتبدو جميلة ، وتجاهد أكثر من ذلك لتسئل نسلاً يخفض من نسبة القبح فى العالم . ولو اقتصررت رسالة أولئك الرسل من ذوات وحي أفروديت ، وعددهن على ما يزال عليه من قلة ، على أن

ينفخن العالم بشمرات جميلة ، ولم يكن المثل الذى تجاهد غير الجميلات ليكون ممرهن مثله ، لكانت تلك الرسالة أقصر من أن تدفع بالعالم إلى نواحي الكمال كما تدفع رسالتهن الأفروديتية القدسية اليوم به .

ومع أن الأشيب كان متجهاً بكل حديثه هذا إلى فاتنته فقد اقترت ثغور الراعية وحاسداها عن بسمات الرضا لسماع قول هذا المفتون بالجمال ، ومالت كل منهن عند ختام الحديث إلى ناحية الصاحب الذى يملقها . وكان الخليل قد نسى الشاب ونسى أنه صاحب الليلة ، وترك نفسه لعواطفها ، وجعل يحدث الراعية حديث هوى ورغبة . ألم يكن قد أخذ هو أيضاً من الشراب الحظ الذى ينسى الحكيم قيود الحكمة ؟ ! ثم إنه لم يكن يخشى غضب أحد أن كان كلٌّ فى شغل بنفسه وبمن يستلين فؤادها . وكان ذلك كله يحدث فى رهبة المعبد الفرعونى الذى ازداد رهبة أن أطفئت رويداً رويداً بعد انتهاء المنظر الثانى كل الأنوار الساطعة ، فلم تبق إلى جانب شعاعات القمر التى تخترق الستور سوى أضواء مستورة بحجب مختلفة الألوان تزيد جمال كل جميلة وضوحاً ، وتخفى ما أحدثه عبث الزمن بالوجوه ، فتلبس الكل حلة الشباب .

ونسيت فاتنة سميراميس نفسها لحظة فى عذب حديث الأشيب وحلو ثرثرته ، ثم أجالت النظر فيما حولها ، فإذا بها تجد صاحبها الأول قد غادر المجلس كأنما لم تبق له برؤية منافسه طاقة ، أو كأنما وصلت النشوة من غور نفسه حتى نسى كل ما حوله ، فهبط إلى إحدى غرف الذهبية ليمطى فيها . وأحس الأشيب تغيراً فى بسمات الفاتنة لم يرتب فى أن الأسف ، على ما حل بهذا الصاحب ، كان سببه . لكن هذا التغير لم يدم إلا قليلاً ، وما لبث أن انقلب إلى زيادة فى إقبالها عليه وفى صراحة إعجابها بحديثه ورضاها عنه . وزاد هذا الرضا فى إشراق وجهها وضحك عينيها وفتنة ابتسامها وضياء كل

جمالها ضياء زادته الرغبة ذكاء فضاعفت جماله . وعقد لسان الأشيب إزاء ما رأى . لكن عقدة لسانه جعلت صمته أكثر إيضاحاً عن كل ما يدور بنفسه من المعاني من كل كلام يمكن أن يعبر عنها . وأى كلام ولو أوقعت أنغامه على أوتار القدسية ، يمكن أن يعبر عن التفاني في عبادة الجمال والإخلاص الصادق في العبودية لفاتنته ! وذلك الإخلاص وهذا التفاني يتضاعفان إذ حلا نفساً كنفس الأشيب أولعت طوال حياتها بتقوى الله وتورعت عما عند عباده ، ولو كان ما عند عباده هو الجمال . وطال بهما الصمت وإن نطقت منهما النظرات أعذب منطق بكل ما تهتر به أعصابهما وأرواحهما وقلوبهما ونفوسهما من عواطف ورغبات ومعان .

وبعد زمن رفرق فيه إله الحب بجناحيه المضيئين على رهبان المعبد وراهباته ، بعد زمن لم يدر هؤلاء الرهبان أطال أم قصر ، عاود الخليل رجوع من واجب المضيف ، فإذا به يهيب من جديد بالسقاة ويغادة المومياء ، وإذا به ينادى العواد وأصحابه :

— هلموا يارفاق فأوقعوا لنا دوراً . ولعل الصحب جميعاً يغتبطون أكثر الغبطة إن أنتم أنشدتم : « غننا في الشوق أو غن بنا » .

وأصلح الموسيقيون آلاتهم ، وغنى العواد أنشودة كليوباترة ، وعاودت الجمع يقظة للوجود بعد أن كانوا قد نسوا الوجود في أحلام آلهة الجمال والهوى . وردد الليل الصامت على نواصمه الرقيقة وعلى أشعة عاشق السماوات أصوات الأوتار والحنان المغنى الذى استثار من طرب الحضور واستحسانهم ما زادهم عرفاناً لفضل الخليل . فلما انتهى الدور ووضع الموسيقيون آلاتهم جانباً ، قال الذى دعانا إلى الشاى :

— ألا يشهد هذا اللحن من ألحان كليوباترة بأن ملوك مصر القديمة وآلهتها كانوا يعيشون في حياة شعرية لا تقل عن حياة أفروديت كما وصفها لنا صاحبنا؟

قال نجى أبيس :

- كلا ، لم يخلع قدماء المصريين على آلهتهم كل هذا الشعر الذى خلعه الإغريق على آلهتهم . وإذا كانت ابنة البطالسة ذات الحديث الساحر قد جعلت من حياتها قصة خيالية ، فلعلها ، من بين ربّات عرش مصر وأربابه ، الوحيدة التى خرجت على حكمة الأقدمين . ولعل لها من العذر أن لم يكن دم آبائها مصرياً خالصاً ، ولم يكونوا عباداً مخلصين لآلهة الفراعنة الأقدمين . أما التاريخ فلم يحفظ لنا فى قصص إيزيس ولا هاتور ولا أبة إلهة أخرى مثل ما يقص تاريخ اليونان عن آلهته وإلهاته . ولعل ذلك يرجع إلى الفرق الكبير بين طبيعة مصر وطبيعة اليونان . فبينما ما فى هذه من جبال وأودية يجعل سماءها عرضة لتغيرات كثيرة تبعث إلى النفوس ألواناً مختلفة من الشعور والحس وتطبع التفكير نفسه بطابع التلون ، إذا بمصر ساكنة إلى حياة واحدة هى الحياة على ضفتى النيل فى نضرة الوادى الدائمة ، تنفّج عنها الصحراوات إلى آفاق الآفاق وتظللها سماء دائمة الصفو . هذا النوع من العيش أدعى إلى التفكير فى القدسيات ، وأولها الموت ثم ما بعد الموت ، من تلك الحياة الإغريقية التى يُنسى حاضرها مستقبليها ، ويجعل أهلها يكونون على المتاع بهذا الحاضر أشد إكباب . وليست قصة أفروديت وشهواتها وسحرها إلا صورة من نسيان المستقبل فى الحاضر . وليست حياة باكوس إله الخمر ولا دمر إلهة الحصاد إلا بعض هذه الصور . فأما آلهة مصر الفرعونية ، فكانت تزين جباههم جميعاً سكينه خلد الوادى المطمئن إلى حاضره طمأنينة تبعث بخياله وتفكيره إلى المستقبل الرهيب الذى ينتظرنه فى الأبدية . هاته السكينه ترونها على جبهة أبيس كما ترونها على جبهة أوزوريس وإيزيس وهاتور من آلهة الخير ، وترونها كذلك على جبهة إله الشر نفسه . جباههم جميعاً مطمئنة كجباه المصريين جميعاً ، فى حين تشتعل فى حناياهم نار المستقبل والتفكير

فيه . وهذا هو ما دعا الفراعنة الأقدمين إلى أن ينقروا فى الصخر قبورهم وأن يعدوا فيها كل معدات الحياة الأخرى ، كى يكفلوا من طمأنينتها ما كفلوا من طمأنينة الدنيا . وهذا هو ما جعل صحارى مصر مأهولة فى عصور كثيرة بمعزلة الصحراء ممن يقضون حياتهم صوماً وصلاة لينالوا الرضا فى الحياة الآخرة . وهذا كذلك هو ما جعل مصر مهبطاً لوحى الحكمة أكثر منها مهبطاً لآلهة الشعر وشياطينه .

كان الشراب قد أخذ لب صديقنا الشاب . لكنه كان من قوة الإرادة بما يجعله يغلب فكره على نوازع غريزته كلما خشى أن يجد الناس فى هذه النوازع موضعاً لنقد . لذلك ترك المحبين يعودون إلى التناجى بالأسرار ، واندفع معقباً على قول النجى :

- لست أعتقد أن الفراعنة من أجدادنا قد قصروا أنفسهم على الحكمة وحدها ، وبخاصة على هذه الحكمة العبوس التى لا تعنى إلا بالموت وبما بعد الموت . فلقد كان لديهم إلى جانب آلهة الخير ، آلهة الزينة كهاتور ، وآلهة الشر وما يزين الشر للناس من ألوان الحياة . ثم إن فى القليل من القصص الذى قرأنا عنهم شيئاً كثيراً عن هذه الدنيا ونعمتها والمتاع بها . ولعلمهم كانوا ككل العالم الوثنى فى حرصه على المتاع بالحاضر وفى تعلقه به تعلقاً اجتمع له من الحكمة حظ كبير . فنحن إذ نذكر المتاع على أنه أس من أسس الحياة ترانا نتقل به إلى النظام الفكرى الذى ألّفناه والذى نتوهم أن فى العالم حقيقة واحدة يجب التوفر عليها . فإذا كان المتاع هو هذه الحقيقة وجب التوفر على الحاضر إلى حد الإفراط فيه بما يخرجهم عن معنى الخير الصحيح الذى له ، إلى التقيض منه ويجعله شراً بحتاً . أما هؤلاء الأقدمون الذين كانوا يحرصون على المتاع بالحاضر فكان لهم من سبل القصد فى المتاع ما تمليه غريزة الاحتفاظ بالمتاع نفسه . هذه الغريزة التى تدلك فى غير منطق ولا تفكير على أن دوام

المتاع لا يكون بالتوفر عليه توفر إمعان وإدمان ، بل بالنهل منه الفينة بعد الفينة لنديم غبطتك به ، كما أنك إنما تدوم غبطتك باليقظة إذا قطعتها كل يوم بالنوم إلى الحد الذى يريح النوم جسمك فيه إلى يقظة جديدة . وكما أن اليقظة حقيقة والنوم حقيقة ، على أنهما ضدان متناقضان ، فالمتاع حقيقة والامتناع حقيقة ، وهما ضدان . وأنت فى حاجة إلى الامتناع وإلى المتاع حاجتك إلى النوم وإلى اليقظة . وهذا شأن كل حقيقة إنسانية يجب أن تجتمع من الضدين اللذين يكونان الحياة ، أى إنها يجب أن تكون الحياة فى كمالها . فأما هذه الأمور التى نسميها حقائق لأنها ترضى منطق العقل وحده فحفظها من الحق ضئيل ، أو قل إنها ليست من الحق فى شئ .

ومضت بعد حديث الشاب برهة صمت أعقبها ضحكة حلوة جاءت من إحدى نواحي المعبد لعلها كانت سخرية الحياة من العقل وتفكيره . ثم عاد التهامس إلى مثل ما كان تكلؤه أفروديت برعايتها ، وكان الليل تولى مدبرة أعجازه . وكلما ولى بعضه ولى معه بعض الحاضرين ينحدرون إلى حيث يخلعون لباس الرهبان ثم يستقلون السيارات إلى حيث ينتظرون مطلع ضياء الفجر . ولم يكن أحد يدرى فى أى سيارة جاء ، وإنما كان يعود إلى حيث يريد فى السيارة التى يدعى إلى العودة فيها .

واعترضت فائدة سميراميس لأصحابها عن العودة معهم بأن صاحبها مضطجع فى الذهبية ، ولا بد لها من انتظاره . لكنها لم تكدرى المكان خالياً إلا من الخليل والراعية ، وترى رجال الخليل ينزلون ستور المعبد الفرعونى لتعود الذهبية كما كانت ، حتى أشارت إلى الأشيبة قائلة فى ابتسام :

— هل لك فى أن ترى مطلع الشمس على وجه أبى الهول عند سفح

الأهرام ؟

ولما أجابها فى طرب واغترباط إلى ما أرادت ، استأذنا الخليل والراعية

وخلعوا لباس العبادة ، ثم استقلا سيارة صاح الأُشيب بسائقها :

- هيا بنا إلى الأهرام .

وصاحت الفاتنة :

- هيا بنا ، إلى بيتِ مِنّا .